عفيف بهنسي

معركة واحدة وعشرة انتصارات

يجب ان أبتدىء الحديث بالانتصار الاول الذي أحرزناه في حربنا الحاسمة لكي أبني عليه ما أكتبه اليوم ، ولتكون الكلمة التي ساكتبها منسجمة مع طبيعة هذا الانتصار .

١ ـ لقد انتصرناعلى الكلمة المنفوخة بالوهم والغرور والخيال ، وأصبحنا نعتمد الكلمة المتلئة باليقين والواقعية والمنطق . وهكذا كانت خطابات رؤسائنا واضحة موضوعية بعيدة عن المبالغات ، وكانت اذاعاتنا وبلاغاتنا وصحفنا مقتصرة على التعريف بالواقع والحقيقة في حربنا الدائرة مع عدو واسع الفروع والجذور ، ولقد انتصرنا على الزيف في سلوكنا فكان اول ما كسبناه اننا أصبحنا نصدق ما نقول ، واصبح العالم يحترم تصريحاتنا ، وصار عدونا يتتبع اذاعاتنا على انها المصدر الصادق والمفزع بصدقه ، مما فضح كذب ما يقوله العدو ويصرح به ، فكان الكسب مزدوجا ، ثقة عالمية بما نقول وشك شامل بما يقولون .

٢ ـ الانتصار الثاني هو التحول الى العقلانية والعلم والتخطيط بعد الطوبائية والارتجال . لقد أعطت الحرب الاخيرة اكثر من برهان على دقة التخطيط والتنظيم على المستويات العسكرية والسياسية والشعبية وعلى التنسيق بين جميع القوى والفاعليات والقطاعات . ولاول مرة كان لكل مواطن دوره في المعركة ، لم يكن ذلك مجرد اندفاع تلقائي بل كان تنفيذا لخطة دقيقة استهدفت حماية معركة التحرير من الفشل والذل والخور .

٣ ـ الانتصار الثالث متعلق باسترداد الكرامة ، ومحو ذل النكسة والقضاء على أسطورة التفوق الاسرائيلي في الشرق الاوسط ، ليس من حيث التسليح والعتاد فقط ، بل من حيث الكفاءة القتالية والبسالة العسكرية .

لقد أحرز العرب انتصارهم بقوة صنوف أسلحتهم ، وبمهارة مقاتليهم وقاذفيهم وطياريهم ، وبسرعة تحركهم ودقة تخطيطهم التعبوي، وبقتالهم الجريء وبسالتهم الصامدة ، ولم يكن هذا الانتصار عطاء ومنة ، كما لم تساهم فيه أية دولة غربية ، بل على العكس لقد كان حرصنا على عدم توسيع نطاق الحرب سببا في دعم الانفتاح والتقارب بين الدول الاعظم .

٤ ـ انتصار رائع أحرزناه من خلال الحرب هو الموقف القومي الشامل الذي وقفته الدول العربية من المحيط الى الخليج ، والذي اعتبرت فيه هذه الحرب حربها ، وان القضية هي قضية العرب كلهم ، فشاركت في المعركة بجنودها وسلاحها ونفطها ومالها وحربها الاقتصادية وحملاتها الاعلامية ، بروح واحدة وعزم واحد وهدف واحد ، فكانت قومية المعركة بداية راسخة لقيام الوجود العربي الموحد .

٥ ـ الانتصار الصارخ تحقق بتحرير الطاقة النفطية من نفوذ الشركات والتروستات ومن التحكم والاستغلال .

لقد كسرنا الطوق المضروب حول أعناقنا وأصبحت مقادير نفطنا بأيدينا ، نحن نضخه ونحدد كمياته ونسعره ونحدد المنتفعين منه ، نمنحه للصديق ونحجبه عن العدو وعن صديق العدو ، ان هذا يعني أشياء كثيرة ، منها ان مادة الحضارة الغربية التي نملكها نحن ، أصبحت مرتبطة بادارتنا ومشيئتنا ، وان الامتيازات الممنوحة للشركات البترولية لم تعد تعن استعبادا لطاقاتنا بل مشاركة قابلة للفسخ في أول محاولة للخداع والعداء . وان شعار بترول العرب للعرب اصبح منذ هذه المعركة أساسا لسياستنا واقتصادنا واصلاحنا الاجتماعي كحقيقة منفذة وليس املا مرتقبا ، وان هذه الطاقة يجب ان تصنع وتستغل على أرضنا وبفعلنا . اننا أولى بهذا الامر طالما نحن الذين ننتج المادة الاساسية ونحن الذين نستهلك المادة المصنعة ، ومن التخلف المشين ان نسمح باستغلالنا في عهد الانتصارات الذي بدأنا نعيشه .

٦ ـ ان قومية المعركة وزج جميع الامكانيات العربية في المعركة أوضح ان مقاليد الاقتصاد الغربي منوطة بآبار بترولنا ، ان هذا الاقتصاد الذي بات يعتمد بنسبة عالية على الصناعات البتروكيماوية المتزايدة ، عدا اعتماده على البترول كوقود لمحركاته وطائراته وسياراته وجراراته ، سيكون طوع السياسة النفطية التي نضعها نحن والمتمشية مع مصالحنا وسيادتنا . ولن يكون دورنا تعسفيا كما كان دور الدول المستوردة لبترولنا ولكنه دور السيد المتحكم في ملكه وثرواته وطاقاته .

ان معركتنا التي خضناها بانتصار شامل علمتنا ان النفط وحده هو التغطية الحقيقية للعملات العالمية ، وانه وحده سيبقى المعادل الاساسي لجميع العملات ، وان التوازنات النقدية والازمات يصنعها النفط وحده حسب منحنيات ازدياده ونقصانه ، تسويقه او حجبه . والشواهد في ذلك اصبحت جلية واضحة .

٧ ـ ان انتصارنا الذي حققناه في معركة التحرير الشاملة ، لم يكن انتصارا على اسرائيل والصهيونية فقط ، بل على اميركا والامبريالية في جميع انحاء العالم ، لقد ارادت المصالح الامبريالية في اوروبا واميركا ان تقف كمادتها الى جانب اسرائيل التي يمثلها اكبر يهود العالم المتنفذين اقتصاديا وسياسيا واعلاميا . ولكن حربنا الصارمة القومية والشاملة ، وضعت هذه المصالح امام تهديد قاطع ، ينسفها من جذورها ، فتسابقت طوعا او كرها الى تأييدنا ، او الى الوقوف موقف المحايد من حربنا . وتسارعت الى حسم هذه الحرب التي كادت تتطور وتتسع لتكون حربا عالمية . على اننا اذا سعينا دائما الى تضييق ساحة الحرب لنجعلها معركة عربية صرفة ، فانا اردناها ثورة يقوم بها العالم الثالث ضد العالم الامبريالي المستغل للطاقات البشرية والمادية التي تملكها الشعوب المتطورة .

٨ ـ ان انتصارنا الذي تجلى بقطع اكثر الدول الافريقية علاقاتها مع اسرائيل لا نفهمه من خلال صراعنا العسكري مع هذه الدولة العنصرية وحسب ، بل انما نرى فيه حركة افريقية تحررية واسعة من النفوذ الاسرائيلي السياسي والاقتصادي الذي استحكم خلال السنوات الاخيرة ، وجعل هذه الدولة الامبريالية تتقوى ضدنا بفعل استغلالاتها المنوعة في هذه القارة الفتية البكر . ولقد فتح هذا الموقف امامنا ابواب صداقات نزيهة تساعدنا دائما في معركة التقدم والتطور التي نسير فيها ازاء الدول المتقدمة تقنيا والمستغلة لامكانياتنا اقتصاديا .

٩ ـ ان اساس هذه الانتصارات كلها ، هو الانتصار العسكري، ولسوف يصبح اسلوب حرب سيناء والجولان واجتياز القناة واختراق الخطوط الاسرائيلية واصطياد الطائرات وسحق الآليات دروسا وأمثلة راسخة في التاريخ العسكري . ان سحق جهود ست سنوات من التحصين والتعبئة والتسليح الاسرائيلي ، واتلاف مليارات الدولارات المنفقة استعدادا لعدوان غادر ، ان تحقيق هذا العمل بيوم واحد ، يضع حقيقة جديدة امام العالم . ان العرب هم الشرق الاوسط ، هم سادته وهم اصحاب مقاديره وليس لدولة طارئة ان تتسلط عليه وتتحكم في مصيره .

١٠ ـ الانتصار الاكبر الذي أحرزناه هو تحقيق الوجود العربي العصري . لقد ارتبط الوجود العربي منذ مباشرتنا معركة التحرير بهذا العصر وبهذا القرن العشرين . لقد اصبحنا ننتسب لحضارة حديثة ، وليس لحضارة تليدة فقط . لقد اتكانا كثيرا على الماضي

فسهونا عن الحاضر والمستقبل ، اما معركة اليوم ، فلقد اوضحت لنا وللتاريخ ان العملاق العربي الذي استيقظ منذ نصف قرن ، يسير اليوم الى الامام باتجاه الشمس .

عشرة انتصارات في معركة واحدة . رصيد ضخم لنضال جيل، ومسؤولية كبيرة سيتحملها جيل جديد هو جيل الانتصارات .

الثورة ٢٥ تشرين الاول

أخبار عن المقاتلين الى القلقين عليهم

في اجازة قصيرة جدا ، عدت الى المدينة الكبيرة من موقعي في مكان ما ، حيث أنا مكلف بمهمة مثل غيري من المواطنين المجندين للمعركة ، وخلال هذه الزيارة العابرة جاءتني أم لا أعرفها تسألني بقلق عن ابنها وأخيها المقاتلين ، وألحت عليّ ان اجيبها على سؤالها وكأنني أعرف المقاتلين واحدا واحدا وأعرف ظروفهم جميعا . ولقد استجمعت كل ما أقدر عليه من عبارات التشجيع والتطمين وأنا أخاطب هذه الام ، ولست متيقنا ان ما قلته قمين بمطامنتها ، فقد كان عليّ ان اقول أشياء اخرى كثيرة . ولهذا اردت ان اوجه هذه الرسالة الى كل أم لم تردها بعد اخبار الغائبين في الجبهة ، بل لعلي اردت ان اخاطب كل انسان بعيد عن معركة القتال واخبارها الحقيقية ، لا يربطه بها الا بعض المقاتلين من الاهل والاقرباء ، لكي أقول له ان الهم والشقاء هو من نصيب الذين يرون الاشياء من خلال الخوف والغموض ، وان من تقلقون عليهم هم احسن حالا بكثير منكم ، ذلك لانهم يعرفون الحقيقة فلا يخافون .

انا لا اقول ان المقاتلين يتمتعون بلذة القتال في الجبهة ، فالقتل والموت ليسا لعبا او لهوا ، وانما يكمن حول كل مقاتل دمار محقق وموت رهيب ، هكذا الحرب التي لم تكن في يوم من الايام بأقل وطأة وبطشا . ولكن الفرق كبير بين من يدخل غمار الحرب ومن يسمع اخبارها . ذلك ان المحارب اذ يسترخص روحه يكسب الحياة هو ويعيش حالة الفوز والسيطرة على عدوه بقدر استعداده للفداء والتضحية ، اما البعيد عن ساحة الحرب المترقب لاخبارها ، فانه يعيش في فراغ وسلبية لا يسعفه منها الا برهان مادي ، كأن يحصل على رأس العدو وينظر اليه مستسلما ، او ان يقف على أرض مكتسبة او مستردة ويتلمس ترابها .

ان من يقف بعيدا عن جو القتال يكون اكثر تعرضا للوهم ولقبول الافكار اليائسة والاخبار المؤسفة . ذلك لانه لا يرى ما فيها .. صحيح انها اتون يلهب المتحاربين ، ولكن هذا الاتون يوقده المتحاربون انفسهم ، ولكل وسيلته في تفادي النار وتصويبها نحو خصمه .

ان من يحمل البندقية ومن يقذف القنبلة او الصاروخ ويعرف الهدف جيدا ، هو الذي يرى بوضوح ، وهو الذي يحدد معاني النصر ، ففي كل خطوة او مرحلة من مراحل القتال نصر لا يراه الا صانعوه ، ونادرا ما ينقل النصر صحيحا الى القابعين قبل الخطوط .

والمقاتل لا يحمل ميزانا لقياس الربح والخسارة ، فليس عدد القتلى والاسرى وليست مساحات الارض هي الميزان ، ولكن الميزان وحده هو في قوة الاندفاع للقتال والصمود ، وفي البسالة والتشبث بالمواقع المتقدمة . ان الانتصار على النفس أهم اشكال الانتصارات . ومن حق المقاتل في الميدان ان يحرز هذا الانتصار ، لانه يعيش في ظروف افضل بكثير من ظروف الذين يحتضنون الترانزيستور يتنقلون من خلاله وراء الاخبار . والفرق كبير بين من يصنع الاخبار الحقيقية وبين من يستمع اليها من خلال الاذاعات المدسوسة او المقتضبة .

المقاتل في الجبهة يتمتع بثقة هي غريبة عن غيره ، ولو اتيح للقلقين عليه ان يمتطوا معه السوخوي او الميغ ، وينظروا كيف يهلع العدو امام اصواتها المدوية المرعبة ، قبل ان ينظروا الى آثار قنابلها المدمرة ، لادركهم بعض الثبات والجنان .

ولو كان بمقدورهم ان ينظروا من خلال مناظير المدافع المنتشرة في كل مكان ، لرأوا كيف تتلاشى قوات العدو وحصونه وراء الضربات السديدة التي يطلقها جندي الميدان .

لقد رأى الناس في المدينة كيف تتهاوى الطائرات العدوة بالمئات أمام ضربات طائراتنا ووسائل دفاعنا الجوي . عندها فقط كانت الطمأنينة تشملهم جميعا ، فكانوا أشبه بالجندي في الميدان . وعندما نفذت الطائرات العدوة ، وفقد من تبقى منها الجرأة على اختراق أجوائنا ، عاد القلق الى الظهور ، لماذا توقف دفاعنا عن اسقاط الطائرات ؟ لماذا لا تتحدث الاذاعة عن الانتصارات ؟

ومن المؤسف أن يصير الناس بهذا اكثر عرضة للحملة النفسية التي تبثها سموم الاذاعات المعادية ، ومن المؤسف ان تصبح غارات العدو على البيوت الآمنة في شوارع السفارات وفي ضاحية دمشق الجديدة ، وعلى الساحل ، عاملا من عوامل الضجر من الحرب .

ان قصف المدن الآمنة امر لا يحتاج الى بطولة وشجاعة وقوة ، وانما هو يقوم على الخسة والغدر والوحشية ، واذا شهدت مستشفياتنا مئات المصابين من هذه الغارات ، فان هؤلاء المصابين كانوا اطفالا ونساء ورجالا آمنين وبعضهم من الاجانب المقيمين في بلادنا . ان الجندي في المعركة شديد الحزن لهؤلاء الضحايا ، ولكن حزنه يدفعه الى الضراوة في القتال والاستبسال في الدفاع ، متجها نحو القوة العسكرية المعتدية وحدها ، بعيدا عن ارتكاب جريمة ضرب الآمنين المجردين من الدفاع . الجندي في الميدان لا يضجر من القتال ، بل على العكس ان امله الوحيد ان ينفسح امامه الزمن الكافي لمتابعة مهمته القتالية الواسعة النطاق . وعندما يوقف اطلاق النار يشعر بالاسى لعدم تمكنه من تحقيق هدفه كاملا ، وهو اذ يقف امام قرارات مجلس الامن ، فانه يكتب بذلك انتصارا جديدا في ضبط النفس وكبح جماح استبساله وقتاله . وعلى الذين يقفون بقلوبهم وراءه ان يفهموا جيدا موقفه ودوره وان يحفظوا ويحافظوا جيدا على انتصاراته الكثيرة التي حجبتها المسافة والحرب النفسية ووقف القتال ، ولكنهم سيسمعون عنها كثيرا وسيقرأون عنها كثيرا ، فهي المؤشر الجديد لتاريخنا الجديد المقبل .

ان بريق الانتصار شعلة يجب ان تستمر مضيئة دائما ، ومن الخيانة ان نحجب ابصارنا عن نورها الساطع .

ان عيوننا التي اعتادت الظلام خلال فترة قاتمة من تاريخ صراعنا مع عدونا الصهيوني ، يجب ان تعتاد على بريق الانتصارات الكثيرة التي أحرزناها من خلال معركة اكتوبر في سيناء والجولان ، والتي توسعت فشملت ابعادها انتصارات على المستويات السياسية والقومية والاقتصادية ، وبهذا المعنى فان هذه المعركة كانت ثورة حقيقية ، ثورة الضمير العربي على جميع اشكال العدوان والاستغلال والامتهان والتشرد . وانتصارنا ناجز في جميع هذه الجبهات المستعصية . ولقد حقق هذه الانتصارات الجندي في المعركة ، وله المجد الاكبر في ذلك شهيدا صار او مقاتلا ما زال . واذا لم يكتب للآمنين حظ في القتال،وشرف في الاستشهاد، فذلك انه لم يجيء دورهم بعد . أنا نفسي مجند قابع في الصف الثاني لم يكتب لي بعد أن أرمي طلقة واحدة ، لم يكتب لي شرف ان اخوض غمار المعركة التي خاضها الصف الاول ، لم أحظ بعد بشرف استشهاد . أعترف انني أشعر بالاسى لان دوري لم يحن بعد . وأنتم القلقون في المدينة الكبيرة سيزول قلقكم ابدا لو ان دوركم قد حان كما حان دور الرجال والنساء والاطفال في السويس وبور سعيد والاسماعيلية . لقد زال قلقهم الى الابد ، لانهم رأوا بأعينهم كيف ينهزم المتسللون الغاشمون امام ارادتهم ، ارادة الانتصار والتحرر .

لقد زال قلقهم لانهم صنعوا النصر بأيديهم وعرفوا كيف يصير ويتحقق ، ودفعوا ثمنه بكل استرخاص .

الثورة ٢٨ تشرين الاول